الوسط والصغار وقبائل البدو وبيعها الى كبار الملاكين . ٢) تمنع بعض الملاكين الوسط والصغار وقبائل البدو من تسجيل اراضيهم بأسمائهم لانهم لا يملكون رسوم التسجيل الباهظة ولا يستطيعون دفع الضرائب السنوية على الارض البالغة ٤ ٪ من ثمن الارض سنويا ، فكان أن استولت الدولة على هذه الاراضي أيضا وباعتها للملاكين الكبار الذين استحصلوا عليها بأثمان بخسة جدا نتيجة لتواطئهم مع موظفي الحكومة . ٣) امتناع بعض الملاكين الوسط والصغار من تسجيل أراضيهم بأسمائهم ووقفها الى بعض المؤسسات الدينية تهربا من رسوم التسجيل ودفع الضريبة السنوية على الارض، لان أراضي الاوقاف كانت معفاة من الضرائب ، وساعد هذا التصرف على زيادة املاك الاوقاف زيادة كبيرة وحرم الفلاحين تدريجيا من أراضيهم .

نرى اذن بوضوح بأن كل التطورات كانت تسير ضد مصالح الفلاحين ، سواء أكانوا مالكين لارضهم أم شركاء فيها . لقد اجتمع على استغلالهم كبار الملاكين والمرابين المتواطئين مع موظفي الدولة العثمانية والسلطات المحلية وذلك لمنعهم من تحسين طرق استغلالهم للارض ليبقوا طيعين تحت رحمتهم ويضغطون عليهم كلما رأوهم جادين في التفلت من نفوذهم . لكن هذا الفلاح رغم هذه الحالة الزرية التي يعيش فيها « وبفضل الذكاء الطبيعي الذي يتميز به »(٧) استطاع ان يحسن بعض أساليبه الزراعية بالقليل القليل الذي يملكه من المال بعدما شاهد نجاح الاساليب الزراعية الحديثة التي دخلت الى فلسطين بواسطة الارساليات الدينية في بيت جالا واللطرون وعمواس التي عمل أفرادها في الزراعة ، وبواسطة المهاجرين الالمان (١٨٦٨) الذين استقروا في مستعمرات زراعية قرب يافا وحيفا والناصرة . وقد كان ذلك قبيل الغزوة الصهيونية للاراضي الفلسطينية . وهذا الوضع يدحض النظرية السائدة التي تقول بأن الفلاح الفلسطيني بدأ بتحسين أساليبه الزراعية بعد احتكاكه بالمهاجرين الصهيونيين(٨)، والواقع يبين بأن الفلاح الفلسطيني بدأ بتطوير أساليبه الزراعية قبل وصول المهاجرين الصهيونيين لان تاريخ انشاء بساتين الحمضيات الحديثة في السهل الساحلي وزراعة الخضار المكثفة في السهل الساحلي ووادي الاردن يعود الى سنة ١٨٧٠ أي قبل دخول المهاجرين الصهيونيين الى فلسطين باثنتي عشرة سنة تقريبا . وسنرى في الجزء الثاني من هذه الدراسة بأن انتاج الفلاح الفلسطيني كان أفضل من انتاج المهاجر الصهيوني خلال الاربعين سنة الاولى من تاريخ دخول الاستعمار الصهيوني الى الاراضي الفلسطينية .

الزراعة الفلسطينية من دخول الاستعمار الصهيوني سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٢٠

كانت بعض فروع الزراعة العربية في فلسطين (بساتين الحمضيات وزراعة الخضار) قد بدأت تتحسن فعليا وتتحدث نتيجة توظيف رؤوس الاموال فيها وذلك قبل ان تطأ اقدام المهاجرين الصهيونيين الاراضي الفلسطينية في سنة ١٨٨٢ . لكننا لا نملك احصاءات عن هذه الفترة التي تلت مباشرة دخول الاستعمار الصهيوني الى فلسطين ويجب الانتظار حتى سنة ١٨٩٥ لنحصل على احصاءات عن الزراعة في متصرفية القدس فقط التي كانت مساحتها ٢٢٠٠٠ كلم٢(٩) اي ما يوازي ٨١ ٪ من مجموع مساحة فلسطين ، وتبقى المعلومات ناقصة عن الجليل وقضاء نابلس التي كانت تابعة آنذاك لولاية بيروت . ثم تنقطع الاحصاءات عن الزراعة في فلسطين الى سنة ١٩٠٩/١٩١٠ حيث نقع على احصاءات عن متصرفية القدس باستثناء قضاء الخليل ، لكن طبيعة الاحصاءات المتوافرة لا تمكننا من المقارنة الكاملة بينها لان مصادرها وتبويبها مختلف الواحدة عن الاخرى كما سنرى فيما بعد . لكن قبل ان نستعرض الاحصاءات المتوفرة لنا لا بد من عرض لوضع الفلاح الفلسطيني التقني في تلك الفترة الذي كان يملك أساليب زراعية متطورة ومنسجمة مع طبيعة الارض والمناخ والظروف السياسية التي يعيشها(١٠) وكان مستواه التقني لا يقل عن مستوى المزارع الاوروبي في ذلك العصر كما